روز غريّب

جدّ الأفيال

المكتبة الأهليّة

روز غريّب

جدّ الأفيال

وحكايات أخرى

المكتبة الأهليّة
ذوق مكايل — الدكوانه
تلفون : ٩٣٤٧٢٤ - ٤٨٠٠٢٣ - ٤٩٥٠٦٥ - ٣٠٨٤١٥

مقدّمة

أُوحى إليَّ هذه الحكايات «سامي»، بطل «مَغاوِر الجِن» الذي شُغِفَ بالأساطير وكان يرتاد المغاور سعياً وراء أخبار الجِن وأسرارِهم. ولا يفوتني ان أذكر زميلةً لسامي، تُدعى رنده، قالت لي مرةً إنها تُفَضّل الحكايات الخَياليّة على الواقعيّة. قُلت: «لكن الحكاية لا يُمكن أن تكون خَيالاً صِرفاً بل هي مزِيج من الواقع والخيال». أجابت: «نعم، هٰذا ما أعني».

في هذه الحكايات، التي بعضها موضوع والبعض الآخر قَدِيم مُجَدَّد او مُوَسَّع، على القارىء والقارئة أن يكتشفا عناصر الخيال، في أحدب يموت ثُمّ يَحيا، في فتاة تُبصِر حرجاً يَمشي، في مَلِك لَهُ أُذنا حِمار، في مامُوت يُصبح فِيلاً، في أسد جائع يَمتَنِع عن افتراس رَجُل، في نَجمة تَتحوَّل الى مَلاك وتُنبتُ للبذور أجنحةً تَطِير، الى ما هنالك.

وكما يَجِب التمييز بين الخيال والواقِع، علينا أن نكتشف الحقيقة والفائدة التي تُقَدّمها الحكاية، مُتَمَثِّلين بقَول سامي: «الحقيقة بنتُ الخيال، كما أن حقائقَ اليوم هي أحلام الأمس».

مغاوِر الجنّ

حِين يَستعرِضُ الحكاياتِ الكثيرةَ الَّتي رَوَتْها له جَدَّتُه في العَشايا، يَرى أَن أشدّها انطباعاً في ذاكرَتِهِ تِلكَ التي تَرْوِي أَخْبارَ الجِنِّ والسَّحَرَة، ومُغامَراتِهِم في الكُهُوفِ والمغاوِرِ، أَو في أَعالي الجَوّ، حِين يَنْتَقِلُون طائِرين من مكانٍ إلى آخَر.

قالَتِ الجَدَّةُ إن في أَرْضِنا مَغاوِرَ كَثِيرَةً يَزُورُها الناسُ ويَتَوَقَّفُون عِندَ مَداخِلِها لأَنَّهم يَخافُون التَّوَغّلَ في دَهالِيزِها ومَمَرَّاتِها المُعْتِمَة. وإنّ أشهرَها سِلسِلةُ مَغاوِرَ تُدْعى «مَغاوِرَ الجِنِّ»، كانَ يَسكُنُها مُلُوكٌ مِنْهُم ومَلِكات، رِجالٌ ونساء، عاشُوا في مَمْلَكَةٍ تَحْتَ الأَرْضِ وانْقَسَموا أَحزاباً وشِيَعاً تَتَقاتَلُ حتى كادَ يُفنِي بَعْضُهُم بَعضا. فريقٌ مِنْهُمُ آخْتَفى وآبْتَلَعَتْهُ الأَرض. وفَرِيقٌ رَحَلَ عَن هٰذِهِ البلاد. طارَ أفرادُهُ في الجَوِّ قاصِدِينَ بِلاداً أُخرى. لكِنَّ قِسْماً مِنْهُم رَفَضَ أَفْرادُهُ الرَّحِيلَ. وآخْتارُوا البَقاءَ في هٰذِهِ الأَرضِ التي أَحَبُّوها. تَحَصَّنُوا في كُهوفِهِم وسَدّوا مَداخِلَها فلا يَجْسُرُ

أَحَدٌ على اقْتِحام مَمْلَكَتِهِم، إلاَّ أفراداً قَلائِلَ مَشَوا دَاخِلَها بِضعَةَ أَمْتارٍ ثم تَوَقَّفوا. وهُناكَ مَن يَقُولُ إنَّ الذِينَ تَوَغَّلُوا بَعيداً في تِلكَ الدَّهالِيزِ ذَهَبوا ولَم يَرْجِعوا.

حِين يَجلِسُ مُنْفَرِداً، يَرُوقُهُ أَن يَتَصَوَّرَ بَعضَ تِلكَ الحِكاياتِ التي تَسْتَهْوِيه. مِنْها أَنَّ مُسافِراً جَلَسَ يَسْتَرِيحُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ، ويَتَناوَلُ الزّادَ الّذِي يَحْمِلُه، فَظَهَرَ لَهُ فجأةً جِنِّيٌّ كالمارِدِ وقال لَه: أُريدُ أن أَقْتُلَك!

ـ لِماذا؟ سأَل المسافِرُ المِسكِينُ وَهُوَ يَرْتَعِدُ خَوفا.

الجِنِّي: لأَنَّكَ قَتَلْتَ ابْني.

المُسافِرُ: كَيْفَ قَتَلْتُهُ؟ أنا لم أَقْتُلْ أَحدا...

الجِنِّي: بَلَى. رَمَيْتَ في الهَواءِ قُشُورَ الجَوْزِ مِنْ غَيْرِ أن تَعْلَمَ بِوُجُودِ ابْني قَريباً مِنْكَ فَأَصابَتْهُ قِشْرةٌ قَتَلَتْهُ..

المُسافِر: لم أَرَ أحداً على الإِطلاقِ، لا قَرِيباً ولا بعيدا.

الجِنِّي: نَحْنُ الجِنُّ نَطِيرُ في الجَوِّ ولا يَرانا أَحَد..

رَكَعَ المُسافِرُ عِنْدَ قَدَمَي الجِنِّيِّ ضارِعاً إِلَيْهِ بِأَنْ يَعْفُوَ عَنهُ لأَنَّهُ لم يَعْرِفْ بِوُجودِ ابْنِه. فَرَقَّ لَهُ قلبُهُ ورَضِيَ بِمسامَحَتِهِ بشرطِ ان يَروِيَ لَهُ بَعضَ الحِكاياتِ المُسَلِّيَة. فالجِنُّ كما يَبْدو، مِثْلُ سائِرَ الناسِ، يُحِبُّونَ الحِكايات.

تَخْطُرُ في بالِ سامِي هٰذِهِ الحِكايَةُ وحِكاياتٌ أُخرى تَدُلُّ على أَنَّ الجِنّ لَيْسُوا مَخْلُوقاتٍ شِرِّيرَة. فَهُم يَتَطَوَّعُون لِمُساعَدَةِ الّذِينَ في ضِيقٍ أو خَطَر. واحِدٌ مِنْهُم نَقَلَ على ظَهْرِهِ أَمِيرةً سَجِينَةً وطارَ بها إلى قَصْرِ الأَمِيرِ الذي عَجزَ عَنِ الوُصُولِ إِلَيْها وإنقاذِها بِنَفْسِه. وجِنِّيٌّ آخَرُ كان سَجِينَ القُمْقُمِ الذي حَبَسَهُ فيهِ المَلِكُ سُلَيْمانُ الحَكِيمُ. فَعَلِقَ في شَبَكَةِ صَيَّادٍ أَرادَ إطلاقَهُ مِنَ القُمْقُم. لٰكِنَّ الجِنِّيَّ خافَ غَضَبَ سُلَيمانَ عَلَيهِ إذا لم يَسْتَكْمِلْ مُدَّةَ سَجْنِهِ فَتَوَسَّلَ بالصَّيَّادِ طالِباً مِنْهُ أَنْ يُعِيدَهُ إلى القُمْقُمِ ولَمّا استَجابَ طَلَبَهُ جَعَلَهُ مِن كِبارِ الأَغْنِياء.

سامي يُحِبُّ التَّحَدُّثَ إلى صَدِيقِهِ هاني عن هٰذا المَوضُوع. ويُصْغي إلَيهِ هاني مَع أنّهُ يُفَضِّلُ أخبارَ الطَّيَّارِينَ وَرُوَّادِ الفضاءِ على حِكاياتِ الجِنِّ التي يَشُكُّ في صِحَّتِها. حَدَّثَهُ سامي عن مَغاوِرِ الجِنِّ مُؤَكِّداً لَهُ أَن فِيها كُنوزاً وأَشْياءَ عَجِيبَةً، وما زَالَ بِهِ حَتّى رَضِيَ بِمُرافَقَتِهِ في رِحْلَةٍ إلى تِلْكَ المَغاوِرِ.

في صَباحِ يَوْمٍ رَبيعِيٍّ، كان الوَلَدانِ يَسْتَعِدّانِ للرِّحلَة. يَلْبَسانِ مَلابِسَ رِياضِيَّةً مَتِينةً. وأحذِيَةً مِنَ الجِلْدِ القَوِيِّ الذي لا تُؤَثِّرُ فيهِ الحِجارَةُ والصُّخُورُ، يَحْمِلانِ صُرَّةً فِيها زادٌ قليلٌ، وإبريقُ ماءٍ، وفانوسٌ كَهْرَبائي.

دخلا المَغارَةَ من بابٍ واسِع محفُورٍ في الصّخرِ، قادَهُما الى مَمرٍّ قَصِيرٍ مُنْخَفِضِ السّقْفِ، عَبَرا مِنْهُ إلى فُسْحَةٍ واسِعَةٍ، أَعلى سقفاً مِنَ المَمَرِّ، حِيطانُها صُخُورٌ بَيضاءُ، تَلْمَعُ في الظّلامِ مِثلَ صُخورِ البِلَّور.

أُعْجِبَ سامي بِمَنْظَرِ الفُسْحَةِ وبَياضِ جُدْرانِها. لكن هاني تقدّمَ نَحْوَ الجُدْرانِ وحَفَرَ فيها حُفْرَةً صَغيرَةً ثم قال: لَيْسَت هٰذِهِ الحِيطانُ اللامِعَةُ سوى كِلْسٍ مُتَحَجِّر..

أَخَذَ الوَلَدانِ يَتَجَوَّلانِ في القاعَةِ التي أَرْسَلَ فيها الفانوسُ الصغيرُ نوراً ضَئِيلاً، بَرَزَتْ مِن خِلالِه التَعارِيجُ والشُقُوقُ والنَّخاريبُ، وتمازَجَتِ الأَضْواءُ بالظِّلالِ واسْتَطالَتِ الأَشْباحُ، حَتَّى خُيِّلَ لهما أَنَّ العالَمَ الذي دَخَلاهُ عالَمٌ مَسْحورٌ يَلُفُّهُ صمْتٌ مُخِيف.

ـ هل تَسمَعُ أَيَّ صَوت؟ سأل سامي رفِيقَه.
ـ لا، قال هاني.
ـ أنا أَسْمَعُ هَمساً وهَمْهَمَة.
ـ يَبْدو أَنَّ سَمْعَكَ كَسَمْعِ الخُلْد.

سَلَّطا النُورَ على مَنْفَذٍ في القاعَةِ دَخَلا مِنهُ. فإذا الأَرضُ تَهْبُطُ تحتَ أقدامِهما. أمامَهُما هُوَّةٌ مُنْبَسِطَةٌ، غَيْرُ عَمِيقَةٍ، أخذَا يَقيسانِها بِنَظَرِهِما وَيَتَحَسَّسانِها بِأَقْدامِهِما وأَيْدِيهِما. ثُمّ انْحَدَرا إِلَيها بِحَذَرٍ فَوَجَداها تُؤَدّي إلى دِهْليزٍ



آخَر، وَقَفا بُرْهَةً فِيهِ يَسْتَريحان. ثُمّ بَلَغَ سَمْعَهما صَوْتُ هَمْسٍ بَعيد. واقتَرَبَ سامي مِنَ الجِدارِ وأَلصَقَ بهِ أُذُنَه. نَعَم، صَوْتُ خَشْخَشَة. أَتُراها حَرَكَةَ الجِنِّ في الداخِلِ؟ سأَلَ الوَلَدُ نَفْسَه. أَتُرانا اقْتَرَبْنا مِنَ القَصْرِ؟

مَشى يتبَعُهُ هاني. أَخَذَ الدِّهْليزُ يزدادُ ضِيقاً. وأَخَذَ الهَمْسُ يَعْلُو ويَقْتَرِب. خُيِّلَ لهاني أَنَّ هناكَ حِجارَةً تَتَدَحْرَج. فَدَبَّ فِيهِ الخَوفُ وقال لسامي: يَجِب أن نَعُود. لَن أبقى هُنا لَحظَةً واحِدَةً بَعد.

ـ لا تَخَفْ، قال سامي. يَبْدُو لِي أَنَّنا اقْتَرَبْنا مِنَ القَصْرِ المَسْحُور.

ـ أُرِيدُ أَن أَعُودَ، صاحَ هاني. إذا لَمْ تَعُدْ مَعِي، رَجَعْتُ وَحدي. . .

لمَّا صارا في الخارِجِ قالَ هاني بِلَهْجَةٍ حازِمَة:
ـ لَن أَعُودَ إلى هٰذا المكانِ مَرَّةً أُخرى!

ـ هل تَخافُ؟ سألَهُ سامي. لَيْسَ هناك مَوضِعٌ للخَوْف. فالجِنُّ قَوْمٌ طَيِّبون.

ثُمَّ رَوى لَهُ، وهُما في الطّرِيق، بعضَ الحِكاياتِ الطَّريفَة، مُحاوِلاً إِقْناعَهُ بِمُعاوَنَتِهِ على مُواصَلَةِ البَحْثِ والتَنْقِيبِ لكنّ هاني أَصَرَّ على مَوْقِفِهِ وقال:

ـ في رَأْيِي أَنْ لَيْسَ في هٰذا المكانِ جِنٌّ ولا عفارِيت، وأَنَّ الأصواتَ التي سَمِعْناها لَيْسَتْ إِلَّا مِن صَنْعِ خَيالِنا. هِيَ بِنْتُ الخَوْفِ والوَهم.

ـ ألجِنُّ حَقِيقةٌ، قالَ سامي وسأُواصِلُ البَحْثَ حَتّى أَكْتَشِفَ مَمْلَكَتَهُم.

لكنَّ هاني رَفَضَ تصدِيقَه وأَعْلَنَ أَنَّهُ يُفَضِّلُ اللّهْوَ بأَلْعابِ «الميكانو» التي تُعَلِّمُهُ تَرْكِيبَ الآلاتِ، وتُعِدُّهُ لِلتَّخَصُّصِ في العُلُومِ، لأَنَّهُ يَنْوي أن يُصْبِحَ مُهَنْدِسا.

بَعْدَ أَيّامٍ نَجَحَ سامي في إِقْناعِ اثْنَينِ مِن أصحابِهِ بمُرافَقَتِهِ إلى مَغاوِرِ الجِنّ.

دَخَلَ الثَّلاثَةُ المَغارَةَ بِحَذَر. بَلَغوا الفُسحَةَ الكبِيرةَ وقَطَعوا الهُوَّةَ المُنْبَسِطَةَ حتى جاوَزُوا في مَسِيرَتِهِم المَوْضِعَ الذي بَلَغَهُ سامي وهاني. ولٰكِنْ حِينَ ابتَعَدوا قَليلا وازْدادُوا تَوَغُّلاً، أَخذَ الدِّهْلِيزُ الذي سارُوا فيه يزدادُ ضِيقاً وظُلْمَةً، وبَلَغَتْ أَسماعَهُم أصواتُ خُطَى مُتَّزِنَة.

ـ أَظُنُّها أصواتَ خُطانا تُرَدِّدُ أَصداءَها الجُدران. قالَ نَبيل، واحِدٌ مِنَ الرَّفِيقَين.

ـ لَعَلَّها أَصواتُ الجِنّ، قالَ سَلِيم، الرفيقُ الآخَر. وأَضاف: إني خائِف. أُريدُ أن أَعود.

لمَّا صارَ الثلاثةُ في الخارِجِ ، أَعلَنَ الرفيقانِ الجَديدانِ أَنَّ التنقيبَ في جَوفِ المَغارَةِ لا يَسْتَهْوِيهِما.

وجاءَ يومٌ عَجِزَ فيه سامي عن إيجادِ مَن يُرافِقُهُ الى المَغاوِرِ. فأَخَذَ يَزُورُها مُنْفَرِداً. وفي كُلِّ زِيارَةٍ تَوَقَّعَ أَن يَظهَرَ أَمامَهُ فجأَةً أشخاصٌ مِنَ الجِنِّ يَتَحَرَّكُونَ ويَتصايَحُون. لَكِنَّهُ لم يَعْثُر إلا على مِياهٍ تَرشَحُ مِن جُدْرانٍ لا نَوافِذَ فيها ولا مَداخِل.

أخيراً رأى أَنْ يَنْقَطِعَ عَنْ سَعْيِهِ المُضْنِي، الذي كَلَّفَهُ وَقْتاً طَويلاً وجُهداً كبيرا. تَراءَى لَهُ أَنَّ المَغارَةَ التي حاوَلَ كَشْفَ أسرارِها مِثلُ البِناءِ الذي دَعاهُ اليُونانِيُّون «لابيرَنْت»: مَوضِعٌ مَلِيءٌ بالمُنْعَرَجاتِ والدُّروبِ المُلْتَوِيَةِ أَوِ المَسْدُودَةِ، والمَسالِكِ التي لَها أَوَّل وما لَها آخِر.

حِينَ نَفَّذَ عَزْمَهُ بالانْقِطاعِ عنِ التَرَدُّدِ إلى مَغاوِرِ الجِنِّ، عَكَفَ على مُطالَعَةِ الحِكاياتِ الخُرافِيَّةِ يَسْتَعِيضُ بِها عنِ المُشاهَداتِ الَّتي تَوَقَّعَ كَشْفَها في المَغارَة. وما لَبِثَ حتى امْتَلأَ رأْسُهُ بأَساطيرِ الشُعُوبِ القَرِيبَةِ والبَعِيدَةِ، والْتَهَبَ خَيالُهُ بِما حَوَتْهُ من غَرائِبَ ومُدْهِشات...

ها إنَّ سامي الآنَ فَتى في مَطْلَعِ شَبابِه. يَطْلُبُ العِلْمَ في إحْدى الجامِعاتِ، يُلازِمُ مَكْتَبَتَها التي حَوَت أُلُوفَ المُجَلَّدات. هُناكَ انْفَتَحَتْ أَمامَهُ عوالِمُ جَديدَةٌ مِنَ

السِّحْرِ والجَمالِ سَلَخَتْهُ عن بيئَتِهِ وشَحَذَتْ قَريحَتَهُ، فأَخَذَ يَكْتُبُ ما يَخْطُرُ لَهُ مِنْ أَفْكارٍ أَوْحَتْها إِلَيهِ الكُتُبُ، يُسَجِّلُ أخباراً وأساطيرَ مِمّا حَفِظَتْهُ ذاكِرَتُهُ، أَوْ تَفَتَّقَ عَنْهُ خيالُه.
وكانَ حَصِيلَةَ جُهُودِهِ مُؤَلَّفٌ ضَخْمٌ جَمَعَ فيهِ أَساطيرَ قديمةً وحَديثَةً، مُقْتَبَسَةً أو مُبْتَكَرَةً، أَضافَ إليهِ بحثاً مُطَوَّلاً في مَعاني الأساطيرِ، مُبَيِّناً أَنَّ الحَقِيقَةَ بِنْتُ الخيالِ وأَنَّ مُخْتَرَعاتِ اليَوم جاءَت مِنْ أَحْلامِ الأَمْسِ، كما جاءَتِ الطيَّارةُ مِنْ بِساطِ الرِّيح.

جِينَ رَجَعَ إلى قَرْيَتِهِ بَعْدَ أَن غامَرَ عِدَّةَ سَنَواتٍ في عالَمِ الكُتُبِ، كانَ أَوَّلُ شيءٍ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَزُورَ مَرْبَعَ طُفولَتِهِ وَمَسْرَحَ أَحْلامِهِ، الذي لم يَكُنْ سِوى مَغاوِرِ الجِنِّ. لَكِنَّهُ فُوجِىءَ بإِعْلانٍ قرأَ فِيهِ عَنْ حَفْلَةٍ تُقامُ في النَّادي الثَّقافي، تكريماً لعالِمٍ كبيرٍ يُدعى هاني رِزْق، عَرَفَ فيهِ سامِي صَديقَ حداثَتِهِ، ورَفيقَهُ في بَعْضِ رِحْلاتِهِ إلى المغاوِرِ.

ماذا صَنَعَ هاني بَعْدَ فِراقِ صدِيقِهِ ورَفْضِه العَودَةَ إلى الكَهْفِ المسحُورِ؟

بَيَنما كان سامي مُنْصَرِفاً إلى جَمْعِ الأَخْبارِ والأَساطيرِ عن عالَمِ الجِنِّ والسَّحَرَةِ، كان هاني في جامِعَةٍ أُخْرى يَدْرُسُ العُلومَ الهَنْدَسِيَّةَ، ومِنْها انْتَقَلَ إلى عِلْمِ المغاوِرِ.

فَدَرَسَ الوَسائِلَ الكَفيلَةَ بارْتِيادِها، وَنَبْشِ دَخائِلِها وخَفاياها. وعادَ إلى القريَةِ ليؤلِّفَ لَجْنَةً مِنَ الباحِثِينَ، قامَ أَعْضاؤُها بِدِراساتٍ دَقِيقَةٍ واستَعانوا بآلاتٍ وأَجهِزَةٍ حَدِيثَةٍ. أَمْكَنَتْهُم، بَعْدَ جُهُودٍ طَوِيلَةٍ، مِنْ كَشْفِ باطِنِ المغارَةِ وارْتِيادِ تَشَعُّباتِها وامتِداداتِها البَعيدة.

وكانَ لِقاءٌ بَينَ سامي وهاني. رَوى كلٌّ مِنْهُما للآخر أخبارَ ماضِيهِ القَريب. وطَرَحَ سامي على صَديقِهِ السؤالَ الذي أَلَحَّ عَلَيْهِ:

ـ هل وَجَدْتَ في المَغارَةِ كُنوزاً دَفِينَةً؟

ـ لا بَلْ وَجَدْنا فِيها ما هو أَثْمَنُ مِنَ الكُنُوزِ، أَجابَ هاني.

ثُمَّ رَكِبَ هُوَ وسامِي سيّارَةً أوصَلَتْهُما إلى مغاوِرِ الجِنّ.

ما أَعْظَمَ التَغَيُّراتِ التي طَرَأَتْ على تِلْكَ البُقْعَةِ التي تركَتْ في نَفْسِهِ تأثيراتٍ وَذِكْرَياتٍ لا تُنْسى. . .

دَخَلاها مِن بابٍ واسِعٍ قادَهُما إلى مُنْحَدَرٍ طَويلٍ ثُمَّ إلى دِهْليزٍ تُنيرُهُ المصابيحُ الكهرَبائيّةُ، وتَبْرُزُ مِنَ الجُدْرانِ المُحِيطَةِ بِهِ عَجائِبُ المَنْحُوتاتِ التي صَنَعَتْها المِياهُ الجَوْفِيَّةُ ولَمْ تَصْنَعْها أَيْدِي الجِنِّ ولا البَشَر!

رأى سامي أمامَهُ عالَماً مِنَ التُحَفِ الجَبَّارَةِ والتَصاويرِ والزَّخارِفِ الدَّقيقَةِ. تَماثيلُ عِمْلاقَةٌ، تُمَثِّلُ أَبْطالاً يَتَحَفَّزونَ لِلْهُجومِ، وأُخْرى تُمَثِّلُ جِنِّيّاتٍ مَذْعُوراتٍ يُرِدْنَ الهَرَبَ، او مُنْحَنِياتٍ فَوْقَ المِياهِ الجارِيَة. أَبْراجٌ مائِلَةٌ، سَتائِرُ مُتَهَدِّلَة، مُدَرَّجاتٌ مُزْهِرَةٌ، سُقُوفٌ مَنْحُوتَةٌ وإطاراتٌ مُزَخْرَفَةٌ، وتَخاريمُ تَنْقُلُها مَرايا النَّهْرِ الذي يَخْتَرِقُ المكانَ وتَنْزَلِقُ فَوْقَهُ القَوارِبُ الخَفيفَةُ ناقِلَةً الزائِرينَ على وَقْعِ المَجاذِيفِ المُنْتَظِم.

عالَمٌ مِنَ الجَمالِ الساحِرِ، والصَّمْتِ الرَّهيبِ، يَقْطَعُهُ خَريرُ النَّهْرِ وضَرْبُ المِجْذاف. ومُوسيقى رَقيقَةٌ تُشْبِه خَريرَ الماء. صَمْتٌ يُمازِجُهُ صَوْتٌ وحَرَكَة. ظلامٌ تَتَخَلَّلُهُ أنْوارٌ وظِلال. بَياضٌ ثَلْجِيٌّ تُخالِطُهُ أَلْوانٌ حَمْراءُ حَدَثَتْ مِنْ تَأَكْسُدِ الحَديدِ وامْتِزاجِهِ بِكَرْبُوناتِ الكِلْس.

ـ هل كَشَفْتُمْ جَميعَ أَقْسامِ المَغاوِر؟ سأَلَ سامي رَفيقَهُ حينَ خُروجِهِما مِن ذٰلِكَ العالَمِ المَسْحور.

ـ كَشَفْنا القِسْمَ الأَكْبَرَ مِنْها. ولا تَزالُ هناكَ أقسامٌ تَحْتاجُ إلى تَنْقيب، أَمَّا القِسْمُ الذي هَيَّأْناهُ للسُّيّاحِ فَيَبْلُغُ طُولُهُ بِضْعَ مِئاتٍ مِنَ الأَمْتار.

ـ قُمْتَ أَنْتَ وزُملاؤُكَ بِعَمَلٍ عَظيمٍ وإنّي أُهَنِّئُكَ، قالَ سامي وَهُوَ يَشُدُّ على يَدِ صَديقِه.

ـ لا تَنْسَ أَنَّكَ كُنْتَ أَنْتَ الرُوحَ المُوحِيَةَ في حِينِ كنتُ أَنا اليَـدَ العامِلَة. كُنْتَ البادِىءَ وأَنا المُكَمِّل.

مرَّت لَحَظاتُ صَمْتٍ قَطَعَها هاني بِسُؤالٍ رافَقَتْهُ ابْتِسَامَةُ عَطْفٍ وحَنينٍ إلى أَيَّامِ الحَداثَة:

ـ ألا تَزالُ تُؤْمِنُ بالجِنِّ وأَخْبارِهِم؟

أَجابَ سامي بعدَ لَحْظَةِ تَفْكير:

ـ ما عُدْتُ أُؤْمِنُ بِالجِنّ. لَكِنّي أُؤْمِنُ بِالخَيالِ الذي اخْتَرَعَ الجِنَّ وحِكاياتِهِم. أُؤْمِنُ بأن العِلْمَ حِيناً والطبيعَةَ حِيناً آخَرَ يَصنَعانِ عَجائِبَ أروَعَ مِن عجائِبِ السِّحْر. لكنَّ الحِكاياتِ الخيالِيَّةَ ما زالَتْ تَسْتَهْويني أَكْثَرَ مِنَ المَنْقولَةِ عَنِ الواقِعِ، فأُحِسُّ بِشَوْقٍ دائِمٍ إلى ارْتِيادِ أَرْضِ العَجائِبِ المَجْهولَةِ واخْتِراعِ الحِكاياتِ التي تُعَبِّرُ عنها... الواقِعُ قد يَكُونُ رائعاً لكِنَّ الخَيالَ أَرْوَعُ، وَقَدْ تَكَرَّسْتُ لَه. ولا تَنْسَ أَنَّ الواقِعَ ابْنُ الخَيال.

قاموس

عشايا: جمع عَشِيَّة، مساء.
توغَّل توَغُّلاً: تَعَمَّق، ذَهَبَ بَعيدا.
إرتادَ ارتياداً: حاوَلَ الكَشْفَ والتَنْقيبَ.
إقتَحَمَ اقتحاماً: دَخَلَ بالقُوَّة.
الدِّهليز: المَسلِك أو الطريق الطويل الضَّيِّق.
قُمقُم: قِنِّينَة من نُحاس، طويلة العُنق.
هَمهمة: صَوت مُنخفِض.
الخُلد: حَيَوان كالأرنب مشهور بحِدَّة سَمعِه.
حازمة: قَوِيَّة.
الجَوفِيَّة: الموجُودَة في جَوفِ الأرض أي باطِنِها.
تأكسُد الحديد: اتِّحادُهُ بالأُكسِجين، يُكسِبُه لوناً أحمَر.

اسئلة

١ ـ تحدَّثْ عن مُغامَرَةِ سامي في مَغاوِرِ الجِن.
٢ ـ كيف تَطَوَّرَت هَوايَتُهُ حين جَاوَزَ سِنَّ الحداثة؟
٣ ـ ماذا كانت نتيجةُ دِراساته؟
٤ ـ ماذا فعَلَ هاني؟
٥ ـ أي مُتْعَة في الحكايات الخَيالِيَّة؟ لماذا تُفَضَّل على الواقِعِيَّة؟
٦ ـ أُذْكُر حكايَةً تُعْجِبك بما فيها مِن خَيال غريب.
٧ ـ الطبيعةُ، العِلمُ، الخَيال، ثلاثَةُ مَصادِر للاختراع. إشرَح ذلك.

العَرَنْدَس

ـ جِئْتُكِ، يا راجِحَة، بِسَمَكَةٍ طازَجَةٍ تَصلُحُ وَليمةً للمُلُوكِ! قال الخَيَّاطُ نَعِيمٌ لِزَوْجَتِهِ وَهُوَ يَضَعُ أَمامَها سَمَكَةً كَبيرَةً، رائِعَةَ المَنْظَرِ، اشْتَراها مِنَ السُّوقِ وَهُوَ عائِدٌ مِنْ دُكَّانِهِ عِنْدَ المَساءِ، في مَدينَةِ بَغْداد.

نَظَرَتِ المرْأَةُ إلى السَّمَكَةِ مَدْهُوشَةً ثُمَّ قالَت:

ـ ما حاجَتُنا إِلَيها وَنَحْنُ اثْنانِ لا غَير؟

ـ سَنَدْعُو صَديقَنا العَرَنْدَسَ لِيُشارِكَنا في العَشاءِ ويُضْحِكَنا بنِكاتِه.

كانَ العَرَنْدَسُ جاراً وصَديقاً لِلْخَيَّاطِ وَزَوْجَتِه. وهُوَ رَجُلٌ أَحْدَبُ، مُشَوَّهُ الخِلْقَةِ، لَكِنَّهُ اشْتَهَرَ بِظَرْفِ لِسانِهِ وَلُطْفِ نِكاتِهِ وبَلَغَتْ شُهْرَتُهُ السُّلْطانَ، فَكانَ يَسْتَقْدِمُهُ إلى قَصْرِهِ بَيْنَ حِينٍ وآخَر لِيَرْوِيَ لَهُ النِّكاتَ والأَخْبارَ المُسَلِّيَةَ ويُرَفِّهَ عَنْهُ بِحَرَكاتٍ مُضْحِكَةٍ وإشاراتٍ ظَرِيفة.

جَلَسَ الثَّلاثَةُ لِلْعَشاءِ وقد أَثارَ شَهِيَّتَهُمْ مَنْظَرُ السَّمَكَةِ

المَقْلِيَّةِ ورائِحَتُها الطَّيِّبَة. واندَفَعَ العَرَنْدَسُ في حَديثِهِ المُمْتِعِ الذي أَطرَبَ مُضيفَيهِ وأَثارَ حَوْلَهُ جَوًّا مِنَ الضِّحكِ والمَرَح. وفيما هُم كذلِكَ تَناوَلَتْ زَوْجَةُ الخَيَّاطِ قِطْعَةً مِنَ السَّمَكِ لَفَّتْها في لُقْمَةٍ ودَسَّتْها في فَمِ الأَحْدَبِ وَهِيَ تَقُول: بِحَياتي عَلَيكَ إلاَّ أَكَلْتَها مِن يَدي!

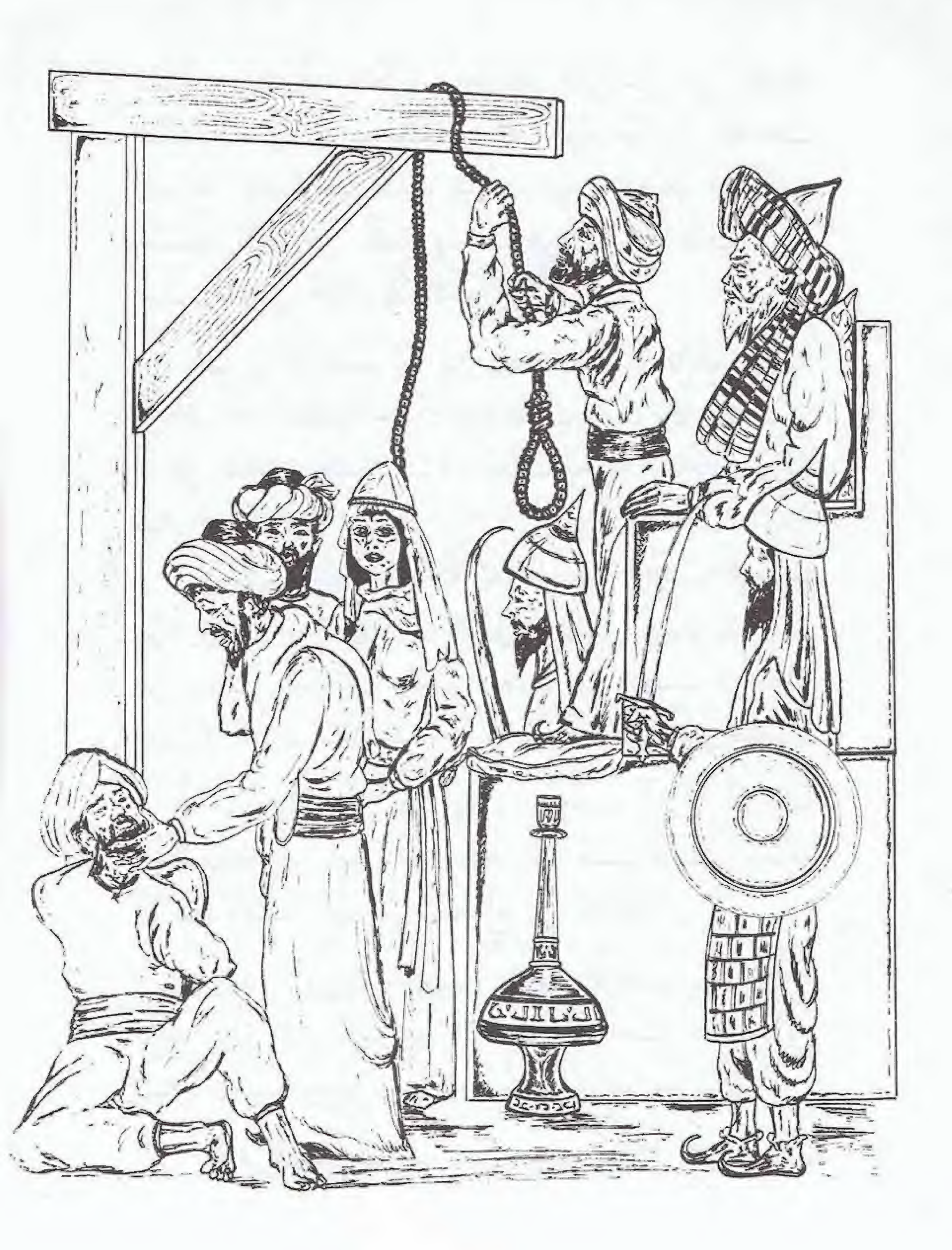
لَمْ يَرَ الأَحْدَبُ بُدًّا مِن إرضاءِ المرأةِ، فابْتَلَعَ اللُّقْمَةَ مِن غَيرِ أَن يَمضَغَها جَيِّداً. ولم يَدرِ - لا هُوَ ولا مُضيفَتُهُ - أَنَّ في داخِلِها حَسَكَةً كَبيرةً، عَلِقَتْ بِحَلْقِهِ، فاخْتَنَقَ وَوَقَعَ مَيْتاً.

صُعِقَ الخَيَّاطُ وزَوجَتُهُ لِما حَدَث. وانْقَلَبَ فَرَحُهُما حُزْناً وغَمًّا. ماذا يَفْعَلانِ بِالقَتيلِ وكَيْفَ يُخْفِيانِ الجَريمَةَ عَنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ؟ وكَيْفَ يَنْجُوانِ مِن غَضَبِ السُّلْطانِ الذي لا بُدَّ أَن يَفْتَقِدَ مُضحِكَهُ الأَحْدَبَ وَيَنتَقِمَ مِمَّن قَتَلَه؟

حِينَ أَفاقا مِن ذُهُولِهِما، اقْتَرَحَتِ المَرْأَةُ أَن يَلُفَّا الجُثَّةَ بِغِطاءٍ مِن حَريرٍ وَيَحْمِلاها إلى طَبيبٍ قَريبٍ، بِحُجَّةِ أَنَّ فِيها وَلَدَهُما المَريضَ المُحتاجَ إلى مُعالَجَة.

ونَفَّذَ الزَّوجانِ حِيلَتَهُما. حَمَلا الأَحْدَبَ وَصَعِدا بِهِ دَرَجَ البِنايَةِ الَّتي يُقيمُ فيها الطَّبيب. ثُمَّ أَعطَيا خادِمَتَهُ رُبعَ دِينار، وحِينَ ذَهَبَتْ لاسْتِدْعاءِ سَيِّدِها، رَكَضا هارِبَين.

جاءَ الطَّبيبُ لِمُعايَنَةِ المَريض. وبما أَنَّ الوقتَ كانَ



ليلاً عَثَرَتْ رِجْلُهُ بِجُثَّةِ الأَحْدَبِ، فتَدَحْرَجَتِ الجُثَّةُ مِنْ أَعْلى الدَّرَجِ إلى أَسْفَل. ولمَّا نَزَلَ الطَّبِيبُ لِيَرى ما حَلَّ بِالمَرِيضِ وَجَدَهُ مَيْتاً.

دَبَّ الرُّعْبُ في نَفْسِ الطَّبيب. لٰكِنَّهُ لَمْ يَفْقِدْ عَزِيمَتَهُ، بَلْ حَمَلَ الأَحْدَبَ إلى سَطْحِ بَيتٍ مُجاوِر. وبما أَنَّ الحائِطَ كان مُنْخَفِضاً، أَنْزَلَهُ عَنِ السَّطْحِ إلى الأَرْضِ، وتَرَكَهُ واقِفاً هُناكَ وسارَ عائداً إلى مَنْزِله.

كانَ صاحِبُ البَيْتِ الذي أُسْنِدَ الأَحْدَبُ إلى حائِطِهِ، رَئِيسَ الطبَّاخينَ في قَصْرِ السُّلْطان، يَنْقُلُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ المَطْبَخِ إلى مَنْزِلِهِ كَمِّيَّاتٍ مِنَ الدُّهْنِ والسَّمْنِ خِفْيَةً عَنْ أَهْلِ القَصْر. فتأكُلُها الفِئْرانُ والهِرَرَةُ وَهُوَ لا يَدْري كيفَ تَذْهَب. رأى الرَّجُلَ الواقِفَ مُتَرَقِّباً عِنْدَ حائِطِ بَيْتِهِ فَظَنَّهُ سارِقَ الدُّهْنِ والسَّمْنِ مِن مَنْزِله. ومِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ هَجَمَ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ بِالمِطْرَقَةِ ضَرْبَةً أَوْقَعَتْهُ على الأَرْض. ولَمَّا رآهُ مُمَدَّداً بلا حَراكٍ، ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ الذي قَتَلَه. فاسْتَغْفَرَ اللهَ وَحَمَلَهُ إلى زُقاقٍ قَرِيبٍ حَيْثُ أَسْنَدَهُ إلى الحائِطِ، وعادَ إلى مَنْزِله.

مَرَّ بالأَحْدَبَ في آخِرِ اللَّيلِ سِمْسارٌ كانَ في حالَةِ السُّكْرِ الشّديدِ، يَمْشي مُتَمايِلاً ويَكادُ يَسْقُطُ على الأَرْضِ بِلا وَعِي. رَأَى رَجُلاً مُسْتَنِداً إلى الحائِطِ فظَنَّهُ شُرْطِيًّا او لِصًّا يُرِيدُ به شَرًّا. ولِلْحالِ لَكَمَهُ لَكْمَةً أَوقَعَتْهُ مَرَّةً أُخْرى

علىٰ الأَرْضِ، وإذا هَوُ مَيت. وفِيما كانَ السَّكْرانُ يُوَلوِلُ ويَضْرِبُ رَأْسَهُ مِنَ الخَوْفِ لأَنَّهُ قَتَلَ الرَّجُل، مرَّ بِهِ شُرْطِيٌّ واقْتادَهُ الى بَيتِ الوالي.

لمَّا أَصْبَحَ الصَّباحُ، انْتَشَرَ خَبَرُ مَقْتَلِ العَرَنْدَسِ وسَمِعَ بِهِ السُّلطانُ فَحَزِنَ حُزْناً شَديدا وأَمَرَ الوالي بِشَنْقِ قاتِلِه.

في هٰذِهِ الأَثناءِ أُلقِيَ القَبْضُ على السِّمسارِ ونُصِبَتِ المَشْنَقَةُ في الساحةِ. وجَلَسَ السُّلطانُ على مُرْتَفَع يُسَمَّى مِنَصَّةً، حَوْلَهُ الوُزَرَاءُ والجُنُودُ، يَنْتَظِرُونَ تَنفِيذَ الحُكْمِ في المُتَّهَم.

ولٰكِنْ، بَيْنما كانَ الجَلاَّدُ يَضَعُ الحَبْلَ في عُنْقِهِ، إذا بِرَئِيسِ الطَّبّاخينَ يَأْتي راكِضاً وَهْوَ يَصرُخ: «أَنا الذي قَتَلْتُ الأَحْدَبَ لأَنِّي ظَنَنْتُهُ لِصًّا، فاشْنقُوني بَدَلاً مِنَ السِّمسار».

تَهَيَّأَ الجَلاَّدُ لِتَنفِيذِ حُكْمِ الإِعْدامِ في المُتَّهَمِ الثاني. لٰكِنَّ الجُمْهُورَ المُحْتَشِدَ هُناكَ لمُشاهَدَةِ ما يَجْري، أَبصروا الطبيبَ يَأْتي مُسْرِعاً، صائحاً: «أَنا الذي قَتَلْتُ هذا الإِنسانَ حِينَ تَفَرْكَشْتُ بِهِ في طَريقي فَسَقَطَ مِنْ أَعْلى دَرَجِ مَنْزِلي إلى أَسْفَلِه».

أَخَذَ الجَلاَّدُ الحَبْلَ وَهَمَّ بإدخالِهِ في عُنُقِ الطَّبيب.

وإذا بالخَيَّاطِ وزَوجَتِهِ يُقْبِلانِ نحوَ السَّاحَةِ ويُشيرانِ إلى الجَلَّادِ بِالتَّوَقُّفِ وهُما يَقولان: إِيَّاكَ أَنْ تَقْتُلَهُ! لأَنَّنا نحنُ المُجْرِمانِ اللَّذانِ سَبَّبا مَوْتَ العَرَنْدَسِ ، حِينَ أَرْغَمْناه على ابْتِلاعِ لُقْمَةِ سَمَكٍ في داخِلِها حَسَك!

رأى السُّلطانُ والوالي ما رَأَيا مِنْ أَحْداثٍ تَتَوالى أَمامَهُما. فأَخَذَتْ كُلًّا مِنهُما الحَيْرَةُ، وأَصْبَحا لا يَدْرِيانِ ما يَفْعَلان.

أَمامَهُما أَرْبَعَةُ أَشْخاص، بل خمسَةٌ، كُلٌّ مِنْهُم يَدَّعِي أَنَّهُ قَتَلَ الأَحْدَب، فأَيُّهُم هُوَ القاتِل؟

كانَ بينَ الحُضورِ مُزَيِّنٌ (أو حَلَّاقٌ) شديدُ الذكاءِ، شَهِدَ الأَحْداثَ وأَخَذَ يُقَلِّبُها في رأْسِهِ مُطْرِقاً مُفَكِّرا. ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وقالَ لِلسُّلْطان: «دَعْني يا مَولايَ أَحُلَّ المُشْكِلَة». جَلَسَ المُزَيِّنُ عِنْدَ رَأْسِ العَرَنْدَسِ وَشَرَعَ يَتَفَرَّسُ في وَجْهِه. ثُمَّ دَهَنَ رَقَبَةَ القَتِيلِ بِدُهْنٍ كانَ مَعَه. وَفَتَحَ فاهُ فأَدْخَلَ فيهِ كَمَّاشَةً مِنْ حَديد. وَشَدَّ حتى أَخْرَجَ مِنْهُ قِطْعَةَ السَّمَكِ وما فيها مِنْ حَسَك. ولِلْحالِ عَطَسَ الأَحْدَبُ وَنَطَّ مِثْلَ القِرْدِ، وَوَقَفَ أَمامَ الجُمْهورِ كَأَنْ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ شَيْء.

غَمَرَتِ الجميعَ مَوْجَةٌ مِنَ الدَّهْشَةِ والفَرَحِ ، وانْفَجَرَ السُّلْطانُ ضاحكاً مُقَهْقِهاً حتى كادَ يَسْقُطُ عَنْ كُرْسيه. ورَفَعَ

المُزَيِّنُ الحَسَكَةَ بِيَدِهِ أمامَ الجُمهورِ وَهُوَ يَقُول: إذا أَكَلْتُمُ السَّمَكَ فاحْذَروا الحَسَك!

إرْتَفَعَتْ يَدا السُّلْطان بالتَّصْفيقِ للمُزَيِّن واقْتَدى بِهِ الحُضور. ثُمَّ أَعْطاهُ مُكافأَةً حَسَنَةً، كما كافَأَ الأَشْخاصَ الذينَ أَقَرُّوا بِذُنوبِهِم وتَقَدَّموا لِلمَوْتِ دُونَ خَوْف. ونَقَلَ العَرَنْدَسَ إلى قَصْرِهِ لِيُسَلِّيَهُ بِنِكاتِهِ في أَوْقاتِ الضَّجَر.

(عن «ألف ليلة وليلة»)

قاموس

الشَّهِيّة: شهوةُ الطعام، القابِلِيّة.
مُضِيف: الذي يستَقبِل ضُيوفَه ويُكرِمُهُم.
صُعِق: اضطرب شديدا كمَن أصابته صاعِقة.
ذُهُول: جمُود سَبَبُه الخَوفُ والحَيرة.
دينار: نَقد من ذَهَب استُعمِل قديماً، ويُستَعْمَل اليوم.
السَّمسار: الذي يُسَمْسِر أي يَتَوَسَّط بين البائِع والمشترِي ويقبض أجرة.

محادثة

١ ـ لماذا يُعَدُّ السَّمَك طعاماً فاخراً؟
٢ ـ من هُو العَرَنْدَس؟
٣ ـ أتَظُنُّ هذه الحِكايَةَ قابِلةَ الوُقوع أم يداخِلها خَيال؟ لماذا؟
٤ ـ ما الغاية منها؟
٥ ـ ما رَأيك في المُزيِّن؟

جَدُّ الأُفيال

كان في قَدِيمِ الزّمانِ فِيلٌ ضَخْمٌ جدًّا يُدعى المامُوت. لَهُ خُرطومٌ ضخمٌ طَوِيل، لٰكِنَّهُ يَختَلِفُ عَنِ الفِيلِ الَّذي نَعرِفُهُ اليَومَ بالوَبَرِ الخَشِنِ الأَسوَدِ الطّوِيلِ الذي يُغَطِّي جِسمَهُ. وبِنابَيهِ الحادَّينِ المَعقُوفَينِ المُدَوَّرَينِ مِثلَ الطّارَةِ التي يَدفَعُها الأَولادُ بالقَضِيبِ إلى الأَمام فَتجرِي مُتَدَحْرِجَة.

كان هٰذا الفِيلُ يُحِبُّ الأَولادَ ويَرغَبُ في مُلاعبَتِهِم. لكِنَّ الأَولادَ يَبتَعِدُون عَنْه. ولَمَّا سألَهُم لِماذا؟ أجابَ واحِدٌ مِنهم: لِأَنّ جِسمَكَ مُغَطّى بشَعرٍ خَشِنٍ حادٍّ كالإِبَرِ يُؤذِينا إذا لَمَسْناك.

أَخَذَ الفِيلُ يُفَكِّرُ ثمَّ خَطَرَ لَهُ خاطِر. ذَهَبَ إلى حَلّاقٍ ماهِرٍ حَلَقَ شَعرَهُ حَلْقاً حَسَناً حتى صارَ جِلدُهُ أملَسَ ناعِماً، لا أَثَرَ فِيهِ لِلشَّعرِ والوَبَر.

إقتَرَبَ الفِيلُ مِنَ الأَولادِ لِيَلعَبَ معهُم لكِنَّهُم ابْتَعَدُوا

عَنهُ مَرَّةً أُخرى. حَزِنَ الفِيلُ وسألَهُم لماذا؟ أَجابَ واحِدُ مِنهُم: نَخافُ هٰذَين النابَينِ المَعْقُوفَين، اللَّذَين تَحمِلُهما. كُلُّ نابٍ أعوَجُ، مُستَدِيرٌ، خَشِنٌ، راسُه كَراسِ الصِّنّارةِ، يَشُكُّ أجسامَنا مِثلَ الحَربَةِ أو مِثلَ المِعْوَلِ الذي تُنكَشُ بهِ الأرض.

ماذا يَعمَلُ الفِيل؟ ذَهَبَ إلى النَجّار وطلبَ منه أنْ يَقطَع قِسماً مِن كُلِّ ناب، لِكَي يَزُولَ اعْوِجاجُه، ويَصْقُلَهُ لِيَصِيرَ أَملَسَ لامِعاً، لا يَخافُ الأَولادُ لَمسَهُ بأَيديهِم.

وعادَ إلى الأَولاد لِيَلعَبَ مَعَهُم، ولَمّا لَمَسُوا جِلدَهُ الأَملَس ونابَيهِ اللامِعَينِ اللَّذَينِ قُطِعَ حَدُّهُما، فَرِحُوا بِمَنظَرِهِ الجَدِيد، لكنَّهم قالوا: هٰذا الخُرطُوم، ما شأنُهُ؟ أَلا يُؤذِي؟

ـ لا. أبداً، أجابَ الفِيل. تعالُوا لِأَحمِلَ واحِداً مِنكُم بخُرطُومي.

تَقَدَّم أَشْجَعُهم، فَحَمَلَهُ الفِيلُ بِخُرطُومِه ورَفَعَهُ في الجَوِّ وباقي الأَولاد يَنظُرون إلَيهِ مَدهُوشِين. وأخَذَ كُلٌّ منهم يقتَرِب مِنهُ بدَورِه فيَحمِلُهُ ويرفَعُهُ في الهَواء. وازْدادَ الأَولادُ جُراَةً فأَخَذُوا يَتسلَّقُون جِسْمَ الفِيلِ الأَملَسَ ويركَبُون ظَهرَهُ ويُداعِبُون نابَيهِ وأُذُنَيهِ العَرِيضَتَين. والفِيلُ يَقُومُ بحَرَكاتٍ مُعجِبَة وعَيناهُ تَلْمَعانِ مِنَ الفَرَح.

هٰكذا أَصبَحَ المامُوتُ فِيلاً. إتَّخَذَ شَكلَهُ الجَدِيدَ لِيُرضِيَ الأَولادَ ويَلعَبَ وإيَّاهُم. فَهُوَ جَدُّ الأفيالِ الذين جاءُوا بَعدَهُ بجُلُودٍ مَلْساءَ وأَنيابٍ مَصقُولةٍ، غَيرِ حادَّةٍ ولا مُستَدِيرة. مِنها يُؤخَذُ العاجُ الجَمِيلُ، وهُوَ العَظْمُ المَتِينُ اللامِعُ الذي تُصنَعُ مِنهُ عُلَبٌ وآلاتٌ أُخرى غالِيةُ الثَمَن.

قاموس

يَتَسَلَّقُون: يَصعَدُون إلى أعلى، الفعل تَسَلَّقَ أي «عَمشَقَ».

مصْقُولة: مؤنَّث مَصقُول، ناعِم المَلمَس، غيرُ خَشِن. نَقُول: مَصقُول كالمِرآة.

محادثة:

١ ـ لماذا تَحَوَّل المامُوت الى فِيل؟

٢ ـ كَيف تَحوَّل أو تَطَوَّر؟

٣ ـ هناك حَيَوانات أُخرى تَحوَّلَتْ بمرُور الزَمَن من شَكلٍ الى شَكل. مَثَلاً اليَمام أو الحَمام البَرِّي تحوَّل إلى حَمام جُوِّي أَلِيف. الهِر البَرِّي تَحَوَّل الى هِر جُوّي. وبَينَ الاشجار المُثمِرَة، نُلاحِظ تَحَوُّلَ البَرقُوق أو الخَوخ البَرّي إلى خَوخ جُوِّي لذيذ الطَّعم، والبَرقُون أو الإجَاص البَرّي الى إجّاص جُوِّي. هل تَعرِف أمثلة أُخرى؟

الثَّعلبُ والماء

الثَّعلَب يَسِيرُ وَحِيداً في البَرِّيَّة.

هَرَبَ مِن المدينَةِ التي طَرَدَهُ أَهْلُها وَلَحِقُوه بالحِجارَةِ، لأنَّهُ أَرادَ دُخُولَ مَزرَعَةٍ قَريبَةٍ، لِيَصطادَ دَجاجةً يأْكُلُها، أو يَسطو على فَرْخٍ يَسُدُّ بِهِ جُوعَه.

ولٰكِنْ ما هِيَ البَرِّيَّة؟ أَرْضٌ جَرْداءُ، لا يَنْبُتُ فِيها سِوى العُشْب، وَهُوَ لا يَأْكُلُ إلَّا اللُّحوم. قَفْرَةٌ لا حِسَّ فيها ولا حَرَكَة. حَتَّى الجَنادِبُ القافِزَةُ ضايَقَها الحَرُّ فَلَجَأَتْ إلى أَوكارِها تَحْتَمِي بِها مِنه. وَمَعَ هٰذا، ظَلَّ الثَّعْلَبُ يَمْشِي لَعَلَّهُ يَعثُرُ على شَيْءٍ يَأْكُلُه. فَهُوَ جائِعٌ لم يَذُقْ طَعاماً مُنْذُ يومَين.

مَشى الثعلَبُ حَزيناً، يُعَذِّبُهُ الجُوعُ والحَرّ. مشى طَويلاً لأنَّه لم يَجِدْ فائدةً مِنَ الوُقوف. وفَجْأَةً، وَجَدَ أمامَهُ كُومَةً مِنَ العِظامِ التي لا يَزالُ عالِقاً بِها قِطَعٌ مِنَ اللَّحْمِ

الطَري. عِظامٌ طَرِيئَةٌ، غَيْرُ يابِسَةٍ، وَعَلَيها فَضَلاتُ لَحْم. يا لَها مِن لُقْيا عَظِيمَةٍ لم يَنْتَظِرْها. عِظامٌ وَلُحُومٌ في قلبِ الصَّحراءِ! لا رَيْبَ أَنَّها فَضَلاتُ أَسَدٍ حَمَلَ فَرِيسَتَهُ إلى حَيْثُ يكونُ بَعيداً عَنِ النَّاس. فَأَكَلَ مِنْها حَتَّى شَبِعَ. وَتَرَكَ الباقِيَ وَمَضى.

هَجَمَ الثَّعْلَبُ على الفَضَلاتِ وَأَكَلَ مِنْها حَتَّى شَبِع تَماماً كَما فَعَلَ الأَسَد. ثُمَّ جَلَسَ بَعدَ هٰذا يَسْتَرِيح. لَعَلَّهُ يَقْدِرُ على النَّومِ بعدَ أَنْ نالَ حاجَتَهُ مِنَ الطَّعام. لٰكِنْ كَيْفَ يَسْتَمْتِعُ بالنَّومِ فَوْقَ الرِّمالِ المُحْرِقَةِ؟ ها هُوَ يَشْعُرُ فَجْأَةً بالعَطَشِ يَقْرُصُ أَحْشاءَهُ وَيُحْرِقُ حَلْقَهُ وَلِسانَه. ألعَطَشُ أَشَدُّ إيلاماً مِنَ الجَوع. مَنْ يَأْكُلُ عَلَيهِ أَنْ يَشْرَبَ وإلَّا قَتَلَهُ العَطَش. الماءُ حياةُ الإنسانِ والحَيَوانِ، ولا حياةَ بِدُونِه.

كادَ يَصْرُخُ مِنَ الأَلَمِ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَرُدُّ عَلَيه. هَل قُدِّرَ لَهُ أنْ يَمُوتَ مِنَ العَطَشِ بَعدَ أَنْ نَجا مِنَ الجُوعِ؟ هل يَجْثُمُ على الأَرْضِ مُنْتَظِراً المَوْتَ؟ لا. لا بُدَّ مِنْ مُواصَلَةِ السَّيْرِ، لَعَلَّهُ يَعْثُرُ على ماءٍ كما عَثَرَ على طَعام.

مَشى الثَّعْلَبُ إلى الأَمامِ، يَتَلَفَّتُ يَميناً وَشِمالا. لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئاً، رَغْمَ هذا تابَعَ السَّيْر. هُوَذا مِنْ بَعيدٍ، نُقْطَةٌ تَبْدُو مِثْلَ دائِرَةٍ صَغيرة. ما هِيَ؟ ماذا تَكُونُ؟ مَشى



مُسْرِعاً رَغْمَ الحَرِّ وَالتَّعب. وأَخيراً... رأى أَمامَهُ فُوهَةَ بِئْرٍ. نَعَمْ. بِئْرٌ ظَهَرَتْ لَهُ فَجْأَةً في الصَّحْراء. نِعْمَةٌ لم يَنْتَظِرْها. لَقَدْ رَأَفَ الله بِهِ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الماءَ كما أَرْسَلَ الطَّعام. إِنْحَنى فَوْقَ البِئْرِ. أَتُراها فارِغَة؟ حَدَّقَ إلى الدَّاخِلِ. لا. لَمْ تَكُنْ فارِغَة. فَالماءُ يَلْمَعُ في داخِلِها، لكِنَّهُ بَعيد. بَعِيدٌ، في القَعْرِ، وَالبِئْرُ عَميقَةٌ فكَيْفَ يَصِلُ الى الماء؟ حَلْقُهُ يابِسٌ، يُطَقطِقُ مِنَ العَطَش. أَلماءُ أَمامَهُ ولا يُمْكِنُهُ الوُصُولُ إليه. جَلَسَ يُفَكِّرُ. هَلْ يَنْزِلُ إلى البِئْر؟ أَلحِيطانُ مَلْساءُ، لَيْسَ فيها نُتُوءَاتٌ تَتَعَلَّقُ بها يَداه وَرِجْلاه في النُّزُولِ والطُّلوع. لَو كانَ مَعَهُ وِعاءٌ لأَنْزَلَهُ بِحَبْلٍ إلى قَعْرِ البِئْرِ لِيَسْتَقي. لكِنْ لا وِعاءَ مَعَهُ ولا حَبْل.

نَظَرَ حَوْلَهُ فَرَأى مِئاتٍ مِنَ الحِجارَةِ والحَصى مَنْثُورَةً فَوْقَ الرِّمال. فَلاحَتْ لَهُ فِكْرَة. أَخَذَ يَجْمَعُ الحِجارَةَ والحَصى أَكْواماً وَيَرْميها في البِئْرِ واحِدَةً بَعْدَ أُخرى. وَكُلَّما ارتَفَعَتْ أَكْداسُها في البِئْرِ، ارْتَفَعَ سَطْحُ الماءِ وَصارَ قَريباً مِنَ الحافَّة. أَلماءُ يَعْلُو... يُصْبِحُ مُوازِياً لِجَوانِبِ البِئْر. يَصِيرُ قَريباً مِنْ فَمِهِ، إِنْحَنى الثَّعْلَبُ فَوْقَ الماءِ وَعَبَّ مِنْهُ حَتَّى ارْتَوى. وَرَفَعَ رَأْسَهُ شاكِراً الله الذي أَنْقَذَهُ مِنَ العَطَشِ، بَعْدَ إنقاذِهِ مِنَ الجُوع.

جَلَسَ على الأَرْضِ يَلْتَقِطُ أَنْفاسَهُ وَيَطْلُبُ الرَّاحَة.

لَكِنْ كَيْفَ يَذُوقُ الرَّاحَةَ فَوْقَ أَرْضٍ تَغْلِي كالنَّار؟ لا بُدَّ مِنْ مُواصَلَةِ السَّير.

جَمَعَ قُواهُ التي أَنْعَشَهَا الطَّعامُ والماء. وعَادَ يَمْشي إلى الأَمام. لَعَلَّهُ يَعْثُرُ على شَجَرَةٍ، أَو وَاحَةٍ، يَحْتَمِي في ظِلِّها مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ اللاَّهِب.

قاموس

الجُنذُب: قَبُّوط، حشرة صغيرة قافِزة.
إيلام: مِن آلَمَ، أَوْجَعَ، سَبَّبَ أَلَماً.
فُوهة: فَم، فُتحَة.
نُتوءات: جمع نُتوء، حجارة بارزة مِثل رُفُوف يُستَنَد اليها.
عَبَّ الماء: شربَ منه دفعةً واحدة مِن غير تَنَفُّس.
إرتوى: شَبعَ مِن الماء.
عَثَر على: لَقِيَ.

محادثة:

١ ـ لاحِظ العبارات: لا حِسَّ ولا حَرَكة. لا وِعاءَ معه ولا حَبْل. هاتِ من عندك عبارات تُشبِهُها.
٢ ـ ما هِي الصُّعوباتُ الثّلاثُ التي واجَهَتِ الثعلَبَ في البَرِّيَّة؟
٣ ـ كيف تَخلَّصَ مِن الصُّعوبة الأُولى؟ من الثانية؟
٤ ـ أكان في وُسعِهِ أن يَنْجُوَ من تلك المَصاعِبِ لو بَقِيَ جامداً في مكانه؟ ما الذي أنقذه؟
٥ ـ كيف رَجا أن يتخلَّصَ من الصعوبة الثالثة؟

الأسئلة الثلاثة

يُحْكى أَنَّ مَلِكاً مِن مُلوكِ الإنكليزِ القُدَماءِ كانَ، رُغْمَ اتِّساعِ مَمْلَكَتِهِ وكَثْرَةِ أَمْوالِهِ وكُنوزِهِ، لا يُرى إلَّا عابِساً، مُتَأَفِّفاً، شاكِياً هُمُومَهُ لِرِجالِ حاشِيَتِهِ، مُرَدِّداً قولَه:

ـ أنا أَتْعَسُ إنسانٍ في الدُّنيا. لا أَسْتَفيدُ مِن أَمْلاكي وأَمْوالي إلا الهُموم. أَلْمَشاكِلُ والخُصُوماتُ والحُرُوبُ تلاحِقُني وَتُسَمِّمُ عَيشي. هٰذا التاجُ على رأسي حِمْلٌ ثَقيل. أَجْلِسُ على كُرْسِيِّ المُلْكِ كأَنِّي جالِسٌ على الشَّوْك.

يَسْمَعُ رِجالُ حاشِيَتِهِ شَكْواهُ فَيُحاوِلونَ تَهْوِينَ الأَمرِ عَلَيهِ وتَخْفيفَ هُمُومِهِ ولٰكِنْ مِنْ غَيْرِ فائِدَة.

حَدَّثَهُ مَرَّةً أَحَدُهُم عَنْ أُسْقُفٍ يُدْعى تُوماس، يُقِيمُ في مَكانٍ قَريب، قَدِ اشْتَهَرَ بَيْنَ الناسِ بِحُبِّهِ لِلْبَسْطِ والمَرَحِ، فلا يُرَى إلَّا مُشْرِقَ الوَجْهِ، مُنْتَفِخَ الخَدَّينِ،

يَسْتَقْبِلُ زائِرِيهِ بِوَجْهٍ ضاحِكٍ وَيَرْوي لَهُمُ الأَخْبارَ والنِّكاتِ الطَّريفَةَ المُسَلِّيَةَ.

أصْغى المَلِكُ إلى مُحَدِّثِهِ وعَلِمَ أَنَّ الناسَ أَحَبُّوا الأُسقُفَ لأَنَّهُمْ أُعْجِبوا بِظَرْفِهِ وبَشاشَتِهِ، فَدَبَّتْ في صَدْرِهِ عَقارِبُ الغَيرَةِ والحَسَدِ، وأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولاً يَدْعُوهُ لِلْحُضورِ إلى بَلاطِه.

خافَ الأُسْقُفُ من دَعْوَةِ المَلِكِ، وَأَخَذَ يَتَساءَلُ عَمَّا يُريدُ مِنه. لٰكِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ في قَبُولِ الدَّعْوَةِ، لأَنَّ أَمْرَ المَلِكِ يَجِبُ أَنْ يُطاع. لَبِسَ ثِيابَهُ الفاخِرَةَ ورَكِبَ دابَّتَهُ ودَخَلَ قصْرَ المَلِك.

أَلْقى المَلِكُ على الأُسْقُفِ نَظْرَةً فاحِصَةً، رأى أمامَهُ إنساناً مُسْتَديرَ الشَّكْلِ، مُوَرَّدَ الخَدَّينِ، مُنْبَسِطَ المَلامِحِ، في وَجْهِهِ وَوَقْفَتِهِ عَلاماتُ العافِيَةِ والرِّضى.

ـ هٰذا رَجُلٌ سَعيدٌ، قالَ المَلِكُ لِنَفْسِه. يَجِبُ أَنْ أَضَعَ حَدًّا لِسَعادَتِه!

ثُمَّ خاطَبَ الأُسقُفَ قائلاً:

ـ أُريدُ أن أَطْرَحَ عَلَيكَ ثَلاثَةَ أَسْئِلَةٍ، إنْ عَجِزْتَ عَنِ الإجابَةِ عنها سَتَلْقى مِني عِقاباً شَدِيدا.

أَخَذَ قَلْبُ الأُسْقُفِ يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ واكْمَدَّ لَوْنُ وَجْهِه.

لٰكِنَّهُ ضَبَطَ خَوْفَهُ، وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ أَسْئِلَةَ المَلِكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفُوهَ بِكَلِمَة.

ـ السُّؤالُ الأَوَّلُ هُو: ما عَدَدُ نُجُومِ السَّماءِ؟

الثاني هُو: كَمْ سَنَةً أَعِيشُ؟

الثالِث: في أَيِّ شَيْءٍ أُفَكِّر؟

هَلْ فَهِمْتَ الأَسْئِلَة؟ قالَ المَلِك.

ـ نَعَمْ يا سَيِّدي، أَجابَ الأُسْقُفُ بِصَوْتٍ يَكادُ لا يُسْمَع.

ـ إذهَبِ الآنَ، وبَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ تَعُودُ إِلَيَّ حامِلاً الأَجْوِبَة.

خَرَجَ الأُسْقُفُ مِنْ حَضْرَةِ المَلِكِ وفي صَدْرِهِ غُصَّةٌ وضِيق. عَرَفَ أَنَّ المَلِكَ أَرادَ بِهِ شَرًّا فَطَرَحَ عَلَيْهِ هٰذِهِ الأَسْئِلَةَ المُحْرِجَة. ولٰكِنْ لِماذا؟ ما الّذي فَعَلَهُ لِيُثِيرَ نَقْمَةَ المَلِكِ عَلَيْه؟ لَمْ يَجِدْ جَواباً عَنْ هٰذا السُّؤالِ، كَما أَنَّ الأَسْئِلَةَ التي طرَحَها المَلِكُ تَرَكَتْهُ أَيْضاً حائِراً، عاجِزاً عن إيجادِ أَجْوِبَتِها.

لَزِمَ مَنْزِلَهُ حَزِيناً، يُفَكِّرُ في مُصيبتِه. يَزُورُهُ أصحابُهُ مُحاوِلِينَ مُساعَدَتَهُ والتَّخْفِيفَ عَنْهُ فلا يَنْجَحُون. حَتّى قَرُبَ اليَوْمُ الثالِثُ، مَوْعِدُ رُجُوعِهِ إلى المَلِكِ، وهُوَ لا يَزالُ على

حالِهِ مِنَ الهَمِّ، والعَجْزِ عن حَلِّ مُشْكِلَتِه. لا بُدَّ أن يَقْتُلَهُ المَلِكُ، إذَنْ عَلَيْهِ أَنْ يستَعِدَّ لِلموتِ. خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لِيُلْقي نَظْرَةَ وَداعٍ على الأَرْضِ التي نَشَأَ فِيها والأَشجارِ التي أَحَبَّها والسَّماءِ الّتي مَنَحَتْهُ بَرَكاتِها. وفِيما هُوَ يَتَمَشَّى في البَرِّيَّةِ، رأى الرَّاعِي «سام»، صَدِيقَهُ القَديمَ، يَسيرُ في اتِّجاهِهِ، ولَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ، مَدَّ الأُسْقُفُ يَدَهُ إِلَيْهِ مُسَلِّماً وأَكَبَّ على عُنُقِهِ يُقَبِّلُهُ ويَقول:

- حَسَنٌ أَنِّي الْتَقَيْتُكَ لأُوَدِّعَكَ قَبْلَ أَن أموت.

- ماذا تَعني؟ قالَ الراعي وَقَدْ صَدَمَهُ قَوْلُ الأُسْقُف.

- أَعْني أَنِّي مُهَدَّدٌ بِالموتِ!

ثُمَّ قَصَّ على الراعي حِكايَتَهُ مع المَلِك وعَجْزَهُ عن إيجاد حَلٍّ للمسائِلِ الثلاث. وأكَّدَ لَهُ أنَّ المَلِكَ سَيَقْتُلُهُ دُونَ رَحْمة.

أطْرَقَ الرَّاعي هُنَيْهَةً يُفَكِّرُ في أسْئِلَةِ المَلِك. وَلَمْ يَلْبَثْ حَتَّى رَفَعَ رأسَهُ وأَطْلَقَ ضِحْكَةً عالِيَةً، تَقَدَّمَ بَعْدَها مِنَ الأُسْقُفِ وَرَبَّتَ على ظَهْرِهِ قائلاً:

- لا شَيْءَ أهْوَنُ مِنَ الجَوابِ عَن هٰذِهِ الأَسْئِلَة. دَعِ الأَمْرَ لي. سأَذْهَبُ مكانَكَ لِمُقابَلَةِ المَلِكِ وإعطائِهِ الأجوِبَة.



ـ كَيْف؟ صاحَ الأُسْقُف. أَتَظُنُّ المَلِكَ عاجزاً عَنِ التَمْييزِ بَيْنَ الأُسْقُفِ والراعي؟

ـ سَأَلْبَسُ ثِيابَكَ الفاخِرَةَ وَأَطْلي وَجْهي بِمَسْحُوقٍ يُعْطِيهِ إشراقاً وانْتِفاخاً، وأَحْمِلُ عَصاكَ وأركَبُ دابَّتَك. فلا يَشُكُّ أَحَدٌ في أَنّي الأُسقُفُ المُحْتَرَمُ الذي يَرْعَى شؤُونَ الناسِ في هٰذِهِ المِنْطَقَةِ المُبارَكَة.

ـ لٰكِنَّك يا صاحِبي تُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِلْخَطَرِ، قالَ الأُسقُف. لا أُريدُ لَكَ أَنْ تَمُوتَ بَدَلاً مِنّي.

ـ لا. لا. كُنْ مُطْمَئِنّاً. أَنا واثِقٌ مِنَ النَّجاحِ.

في اليَوْمِ المُعَيَّنِ لِمُثُولِ الأُسقُفِ في حَضْرَةِ المَلِكِ، دَخَلَ الراعي «سام» القَصْرَ، وقد أَحْسَنَ التَّنَكُّرَ بِزِيِّ صَدِيقِهِ، فلم يَخْطُرْ بِبالِ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَحَّصَ وَجْهَهُ وَيَكْتَشِفَ الفَرْقَ بَيْنَهُما.

وَقَفَ أَمامَ صاحِبِ العَرْشِ مُبْتَسِماً، مُنْبَسِطَ المَلامِحِ، كَأَنَّهُ في وَليمَةِ عُرْس. وَرَفَعَ يَدَهُ مُسَلِّماً، داعياً لِلْمَلِكِ بِالنَّصْرِ وطُولِ العُمر.

إبْتَسَمَ المَلِكُ، رُبَّما لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ. وأَلْقى سُؤَالَهُ قائلاً:

ـ هَلْ جِئْتَ بالأَجْوِبَةِ المَطْلُوبَة؟

ـ نَعَمْ يا سَيِّدي .

ـ ما هُوَ عَدَدُ النُّجُوم؟

أَدارَ الأُسقُفُ الراعي نَظَرَهُ في سَقْفِ القاعَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَطْلِعُ فِيهِ خَبَراً ثُمَّ أَجاب :

ـ سَتَعْرِفُ عَدَدَ النجومِ يا سَيِّدي إذا عَرَفْتَ عَدَدَ شَعَراتِ رأسِك. لأَنَّ عَدَدَها يَبْلُغُ ضِعْفَي عَدَدِ الشَعَراتِ التي تُغَطِّي رأسَك. دَعْني أَعُدَّها لأُعْطيكَ الجواب.

تَحَرَّكَ المَلِكُ فَوْقَ كُرْسِيهِ وقد فاجَأَهُ الجَوابُ. ثُمَّ قال :

ـ كَيفَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَعْرِفَ عَدَدَ شَعَرَاتِ رأسي؟

ـ هٰذا ضَروري لأَعْرِفَ عَدَدَ النُجُومِ ، لأَنَّ عَدَدَ هٰذِهِ مُضاعَفُ عَدَدِ تِلْك.

ـ لٰكِنَّ شَعَراتِ رأسي تَبْلُغُ الأُلوفَ عَدَداً، قالَ المَلِك.

ـ وعَدَدُ النُجومِ يُساوِي أُلوفَ الأُلُوف. الحِسابُ بَسيط. تَضرِبُ عَدَداً بِعَدَدٍ آخر فَتَحْصُلُ على الجَواب.

إِبْتَسَمَ المَلِكُ مَرَّةً ثانِيَةً ثم طَرَحَ سؤالَهُ الثاني :

ـ مَتى أَمُوت؟

ـ مَتى تَموت؟ قال الأُسقُفُ الراعي. تَموتُ يَوْمَ يَأْمُرُ اللهُ بِمَوْتِكَ، لا قَبْلُ وَلا بَعْد.

ـ ولٰكِن، مَتى يَكُونُ ذٰلِك؟ سأَلَ المَلِك.

ـ لماذا تُريدُ أَن تَسْتَبِقَ أَحْكامَ الله؟

ـ لأَنِّي أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ مَتى أَموت. هٰذا أَمرٌ يَهُمُّني.

ـ أَخافُ يا سَيِّدي، قالَ الأُسْقُفُ الرَّاعي بِصَوْتٍ رَنَّان، أَخافُ إِنْ قُلتُ لَكَ: «سَتموتُ بَعدَ عَشْرِ سَنَواتٍ»، أَنَّ اللهَ الذي لا تَخْفَى عَلَيهِ خافِيَة، يَغْضَبُ عَلَيَّ ويُبَدِّلُ حُكْمَهُ، فيُميتُكَ بَعْدَ خَمسِ سَنوات. ولا أَظُنُّكَ تَرْغَبُ في خَسارَةِ خَمسِ سَنَواتٍ مِنْ عُمْرِك.

سَكَتَ المَلِكُ كَأَنَّما ساوَرَهُ الخَوْفُ، ثُمَّ قالَ بعدَ قَليل:

ـ والآنَ أَسْأَلُكَ السُؤالَ الثالِثَ والأَخير:

ـ في أَيِّ شَيْءٍ أُفَكِّر؟

ـ في أَيِّ شَيْءٍ تُفَكِّر؟ ها ها، قالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُطلِقُ ضِحْكَتَهُ المَرِحَة. تُفَكِّرُ في أَنِّي الأُسْقُفُ تُوماسُ وما أَنا إِلَّا راعٍ مِسْكِينٌ، تَطَوَّعْتُ لِمُقابَلَتِكَ بَدَلاً مِنْهُ، وبِذٰلِكَ سَعِدْتُ بِحَظِّ التَّفَرُّجِ على هٰذا القَصْرِ العَظِيمِ وَلِقاءِ صاحِبِهِ الأَعْظَم.

قالَ هٰذا وخَلَعَ عَنْهُ المَلابِسَ الأُسْقُفِيَّةَ فَبَدا في ثِيابِ الراعي البَسيطِ الّذي قَضى حَياتَهُ في رِفْقَةِ أَغْنامِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ شَيْئاً مِنْ عُلومِ الأَساقِفَةِ، ولا مِنْ حِكْمَةِ المُلُوك.

لَبِثَ المَلِكُ صامِتاً وَقَدْ حَيّرَتْهُ أَجْوِبَةُ الرَّاعي. ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ أَيْضاً في ضِحْكَةٍ شَبيهَةٍ بِضِحْكَةِ الرَّجُلِ الواقِفِ أَمامَه. ولِكَيْ يُبَرْهِنَ عَنْ إِعْجابِهِ بِهِ، ناوَلَهُ صُرَّةً مِنَ النُّقُودِ وصَرَفَه.

وَمِنْ ذٰلِكَ الحِينِ تَبَدَّلَتْ طِباعُهُ، ولازَمَهُ الهُدوءُ والاطْمِئْنانُ، بَعْدَ أَنْ أَلْقى عَلَيْهِ الرَّاعي دَرْساً في التَّعَقُّل.

قاموس

المَرَح: اشتداد الفَرَح والنشاط
ضِعف الشيء: مِثْله في المقدار. ضِعفاه: مِثله مرَّتين

عبارات للحِفظ

دبَّت في صدرِه عقارِبُ الغَيرة
أطلق ضِحكَةً عالية
لا تَخفى عَلَيه خافية.

محادثة

١ ـ لماذا كان الملِك تَعيساً رغم كَثرَةِ أمواله؟
٢ ـ ما مَعنى «أُريدُ أن أَضَعَ حَدًّا لِسَعادته»؟
٣ ـ لماذا أُعجِب الملك بأجوبة الراعي؟ على ماذا تَدُل هذه الأَجوِبَة؟
٤ ـ ما معنى «ألقى عليه دَرْساً في التَعَقُّل»؟

زَرْقاءُ اليَمامَة

أَرْضُ اليَمامَةِ مِنْ جَزيرَةِ العَرَبِ اشْتَهَرَتْ قَديماً بِالعَرَّافين والعَرَّافاتِ الّذينَ يَقْرَأُونَ المُسْتَقْبَلَ وَيَبْذُلونَ النَّصائِحَ لِلْحائِرين.

عاشَتْ في تِلْكَ الأَرْضِ فَتاةٌ تُدْعَى «حَذام» لٰكِنَّها لُقِّبَتْ بِزَرْقاءِ اليَمامَةِ، لا لِأَنَّها كانَتْ زَرْقاءَ العَيْنَيْنَ، بل لِأَنَّها امْتازَتْ بِصَفاءِ عَيْنَيْها وَحِدَّةِ بَصَرِهِما. فَالزُّرْقَةُ عِنْدَهُم تَعْني الصَّفاء. وقد رَأَوا في عَيْنَيِ الزَّرْقاءِ لَمَعانَ الشَّمْسِ وبَريقَ الماسِ وَوَميضَ البَرْقِ بَيْنَ الغُيوم.

لم تَكُنِ الزَّرْقاءُ عَرَّافَةً لٰكِنَّ حِدَّةَ بَصَرِها جَعلَتْها تَكْشِفُ أَشْياءَ لم تَنْكَشِفْ حَتَّى لِلْعَرَّافين، لِأَنَّها رَأَتْ ما لَمْ يَقْدِروا على رُؤْيَتِه. قالَ الشُعَراءُ إِنَّ في عَيْنَيْها سِحْرا. وقالَ آخَرونَ إِنَّ الجِنَّ وَضَعوا في قَفا عَيْنَيْها طِلاءً مِنْ صَنْعِهِم، مَنَحوها بِهِ قُوَّةَ النَظَرِ عَنْ بُعْد. فَهِيَ تُبْصِرُ النَّسْرَ المُحَلِّقَ في أَعالي الجَوِّ، وَالمَرْكَبَ السائِرَ في أَقاصي

البِحار. تَخْتَرِقُ بِبَصَرِها السَّتائِرَ والأَقْنِعَةَ، تَفْحَصُ آثارَ المُسافِرِين فَوْقَ الرِّمالِ، فَتَعْرِفُ أَعْدادَهُم وَتُمَيِّزُ بَيْنَ آثارِ الرِّجالِ وَالوِلْدانِ، وآثارِ العُرْجِ والأَصِحَّاءِ الأَرْجُل.

رَأَتْ مَرَّةً غَيْمَةً سَوْداءَ تَسْبَحُ في الأَعالي فَقالَتْ إِنَّها سِرْبُ حَمام. فَكَذَّبوها وقالُوا هٰذِهِ غَيْمَة. وَلَمَّا اقْتَرَبَتِ الغَيْمَةُ مِنَ الأَرْضِ إذا هِيَ كَما قالَتْ. فَسَأَلَتِ الّذينَ كانوا حَوْلَها يَنْظُرونَ: «أَتَعْرِفُونَ عَدَدَ الحَمامِ؟» قالُوا: «لا. وأَنْتِ هَلْ تَعْرِفين؟» فَأَجابَتْ بِبَيْتِ شِعْرٍ، هُوَ عِبارَةٌ عَنْ عَمَلِيَّةٍ حِسابِيَّةٍ تَقُول: إذا أَضَفْتَ إِلى عَدَدِ الحَمامِ نِصْفَهُ وَواحِدَةً، كان المجموعُ مِئَة.

وَلَمَّا حَطَّتِ الحَمائِمُ على الأَرْضِ عَدُّوها فإذا هِيَ كَما قالَتْ: سِتٌّ وسِتُّونَ حَمامَةً، إذا أُضِيفَ اليها نِصفُها وَهُوَ ثَلاثٌ وثلاثونَ ثُمَّ واحِدَةٌ كانَ المَجْمُوعُ مِئَة.

ذَاعَ صِيتُ زَرْقاءِ اليَمامَةِ في طُولِ البِلادِ وعَرْضِها وَتَناقَلَ الناسُ أَخْبارَها. قَصَدَها الّذينَ أَضاعُوا أَشْياءَ صَغيرَةً وَثَمينَةً، كالخَواتِمِ والنُّقُودِ الذَهَبِيَّةِ، في الرِّمالِ أَوْ في الأَماكِنِ الوَعِرَةِ أَوِ الكَثِيفَةِ العُشْبِ، فَكانَتْ تُسَلِّطُ نُورَ عَيْنَيْها على الأَرْضِ وَتُبْصِرُ مِنْ خِلالِ الثُقوبِ وَالشُّقوقِ الضَّيِّقَةِ أَشْياءَ لا يُبْصِرُها غَيْرُها. تَرَى القَادِمَ على بُعْدِ أَلْفِ ذِراعٍ،



تُبْصِرُ في السَّماءِ عَلاماتِ تَبَدُّلِ الطَّقْسِ وفي الأَرْضِ عَلاماتِ الخِصْبِ والنُّمُوِّ، والقَحْطِ واليَبْس.

حَدَثَ يَوْماً أَنَّ زَرْقاءَ اليَمامَةِ وَقَفَتْ على سَطْحِ مَنْزِلِها، تُسَرِّحُ نَظَرَها في الأَراضِي المُمْتَدَّة. رِمالٌ وَكُثْبانٌ. سُهولٌ وَمُرْتَفَعاتٌ، وفي البَعيدِ أَحراشٌ وغاباتٌ كَثيفَةٌ تَتَّصِلُ بِالأُفُقِ، وَيَضِيعُ فِيها النَّظَر.

حَدَّقَتِ الزَّرْقاءُ إلى تِلْكَ الأَحراشِ البَعِيدَةِ، فَأَبْصَرَتْ فيها حَرَكَةً غَريبَةً. لَمْ تَكُنْ حَرَكَةَ الأَغْصانِ بَيْنَ يَدَيِ الرِّيح. فَالجَوُّ ساكِنٌ، والجُمُودُ يُخَيِّمُ على الدُّنْيا. لَمْ تَكُنْ حَرَكَةَ الطُّيُورِ المُرَفْرِفَةِ، ولا الغِزْلانِ الرَّاكِضَة. بل هُناكَ أَشجارٌ تَتَحَرَّكُ وَتَتَقَدَّمُ في اتِّجاهِ الدِّيارِ الّتي يُقيمُ فيها بَنُو تَميمٍ، قَوْمُ الزَّرْقاء.

حَدَّقَتِ الزَّرْقاءُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، نَعَم. أَلأَشْجارُ تَتَحَرَّكُ وَتَتَقَدَّمُ نَحْوَ مَنازِلِ قَوْمِها وَخِيامِهِم. لَيْسَ في الأَمْرِ شَكٌّ. . . الأَشْجارُ تَمْشِي!

نَزَلَتِ الزَّرْقاءُ عَنِ السَّطْحِ مُسْرِعَةً وَنادَتْ قَوْمَها قائِلَة:

الحِرشُ يَمْشي. إِنَّهُم أَعْداؤُكُم يَحْمِلونَ الأَشْجارَ لِيُخْفوا تَحْتَها أَجسامَهُم وأَسْلِحَتَهُم. يَتَقَدَّمونَ نَحْوَكُم وَأَنْتُم

لا تَشْعُرون. يا قَوْمُ هُبُّوا وَاحْمِلوا السِّلاحَ، وأَسْرِعوا لِمُلاقاتِهِم قَبْلَ أَنْ يُفاجِئُوكُم وَأَنْتُم غافِلُون!

سَمِعَ القَوْمُ نِداءَ الزَّرْقاء. صَعِدوا إلى السَّطْحِ وَنَظَروا إلى البَعيد. لَكِنَّهُم لَمْ يُبْصِرُوا ما أَبْصَرَتْ، لأَنَّ أَعْيُنَهُم كَانَتْ أَضْعَفَ مِنْ أَنْ تَرى عَنْ بُعْدٍ ما رَأَتْهُ هِيَ.

وَلَمَّا اسْتَشارُوا في الأَمْرِ العَرَّافينَ ضَحِكُوا مِنْ قَوْلِها لأَنَّ الحَسَدَ أَعْمى قُلُوبَهُم. وَأَخَذُوا يَقولون: هٰذِهِ الفَتاةُ تَهْذِي.. كَيْفَ تَمْشِي الأَشْجَارُ؟ مِنْ أَيْنَ لِلْحِرْشِ أَنْ يَتَحَرَّكَ؟

وَافَقَ على قَوْلِ العَرَّافِينَ كَثِيرونَ مِنَ الرِّجَالِ وَزادُوا قائِلين: أَنُصَدِّقُ امْرَأَةً تَسْبَحُ في أَوْهامِها، وَيَنْسُجُ لَها خَيالُها أَشْباحاً وَصُوَراً لا أَساسَ لَها مِنَ الصِّحَّةِ؟...

عَلِقَ الجِدالُ بَيْنَ السُّكَّانِ، فَريقٌ مُصَدِّقٌ لِلزَّرْقاءِ وفَرِيقٌ مُكَذِّب. إشْتَدَّتِ الخُصُومَةُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ وَعَلا الصِّياح. وَفيما هُم كَذٰلِكَ، فاجَأَهُم الأَعْداءُ الّذِينَ وَصَفَتْهُمُ الزَّرْقاء. كانُوا جَيْشاً لَهُ أَوَّلٌ وما لَهُ آخِر. قَطَعوا الأَشْجَارَ وَحَمَلُوها وسارُوا قاصِدينَ دِيارَ بَنِي تَمِيم. وكانَ هَؤُلاءِ غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتالِ، فَهَزَمُوهُم شَرَّ هَزِيمة. قَتَلُوا مِنْهُم فَرِيقاً كَبِيراً وَأَسَرُوا الباقِين.

حِينَ أَصْبَحوا في أَيْدي أَعْدائِهِم، جَلَسُوا مُكَبَّلِينَ بِالسَّلاسِلِ، يَنْدُبُونَ حَظَّهُمْ وَيَلُومُ بَعْضُهُم بَعْضاً، لِأَنَّهُم لم يَسْتَجيبوا لِنِداءِ الزَّرْقاءِ وَلَمْ يُصَدِّقوا قَوْلَها. نَدِموا وَتَحَسَّروا وَلٰكِنْ بَعْدَ فَواتِ الأَوان.

أَما الزَّرْقاءُ، أو حَذام، فَأُخِذَتْ أَسِيرَةً بَيْنَ الأَسْرى. وعاشَتْ كما عاشَ غَيْرُها، لٰكِنَّها ظَلَّتْ تُساعِدُ مَنْ كانُوا في حَاجَةٍ إلى المُساعَدَةِ وَتَنْصَحُ مَنْ يَطْلُبُ النُصْح. وَبَعْدَ مَوْتِها تَناقَلَ الناسُ أَخْبارَها وَحَدَّثُوا أَوْلادَهُم عَنِ المَرْأَةِ التي كانَتْ أَحَدَّ بَصَراً مِنَ النَّسْرِ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَنْفَعَ قَوْمَها بِمَوْهِبَتِها، لٰكِنَّهُم حِينَ رَفَضُوا العَمَلَ بِنَصِيحَتِها، أُصِيبُوا بِالخَسارَةِ والفَشَل.

وَإِنَّ شاعِراً مِنْهُم خَلَّدَ ذِكْرَها بِبَيْتِ شِعْرٍ يَقُولُ فِيه:

إذا قَالَتْ حَذامِ فَصَدِّقُوها فإِنَّ الصِّدْقَ ما قَالَتْ حَذامِ!

قاموس

سِرْب: قطِيع، جماعة
كُثبان: جَمع كثيب، تَلَّة رَمل

محادثة:

١ ـ لماذا لُقِّبَت حَذام بزَرقاء اليمامة؟
٢ ـ ما وظيفَةُ العرَّاف؟
٣ ـ لماذا أنكر العرَّافون قولَ زرقاءِ اليمامة؟
٤ ـ أتَظُنُّ الزرقاءَ امرأة واقعيّة ام حياليّة؟ لماذا؟
٥ ـ لماذا يَشتَهِرُ أهل الصحراء بِحِدَّةِ بَصَرِهِم؟
٦ ـ انتخب مِنَ النّص عبارة أو قولاً تستحسِنُ حِفظَهما.

الفهـرس

الطباعة

انطون الياس الشمالي

درعون ـ تلفون: ٩٠٣٩٠١

جَدّ الأفيال